

العلاقات السياسية بين الحجاز واليمن في عهد الأيوبيين

بقلم
محمد بن علي عسيري
المحاضر بقسم التاريخ
بكلية العلوم الاجتماعية

العلاقات السياسية بين الحجاز واليمن زمن الأيوبيين

شهد النصف الثاني من القرن السادس الهجري سقوط الخلافة الفاطمية في مصر وقيام الدولة الأيوبية مكانها. وتبع ذلك انحسار ظل النفوذ الفاطمي عن بعض مناطق في شبه الجزيرة العربية ومنها الحجاز واليمن. وقد حل النفوذ الأيوبي محل النفوذ الفاطمي في هذه المناطق، وبذلك عاد النفوذ العباسي السني إلى هذه المناطق بعد أن زال عنها فترة طويلة أثناء التنافس السياسي والمذهبي بين العباسيين والفاطميين.

وقد اختلفت طبيعة النفوذ الأيوبي في كل من الحجاز واليمن من حيث السيطرة الفعلية والحكم المباشر، ففي الحجاز نجد أن هذا النفوذ اسمي لا يعدو ذكر اسم الخليفة العباسي واسم صلاح الدين الأيوبي والدعاء لهما على منابر الحرمين الشريفين، أما الحكم الفعلي فهو بيد الأشراف من بني الحسن في مكة المكرمة، وبني الحسين في المدينة المنورة، ومع ذلك لم تتمتع حكومة الأشراف في الحجاز بالاستقلال التام، بسبب تدخل العباسيين والأيوبيين في شئونها الداخلية، كلما سنحت الفرصة لذلك، إلى درجة استخدام القوة أحياناً لإخضاع بعض الأمراء الأشراف من ذوى النزعة الإستقلالية.

وتولى الإمارة في مكة المكرمة في فترة إمتداد النفوذ الأيوبي إلى الحجاز عدد من الأمراء الأشراف ينتمون إلى الطبقتين الثالثة والرابعة من طبقات الأشراف حكام مكة المكرمة. وأول هؤلاء الأمراء الذين استقبلوا النفوذ الأيوبي في الحجاز الأمير عيسى بن فليته هو الحاكم السادس في مكة المكرمة من طبقة الأشراف الثالثة «الهواشم» وقد خطب للخليفة العباسي ولصلاح الدين الأيوبي، ثم تولى الإمارة في مكة المكرمة بعد وفاته سنة ٥٧٠هـ إثنان من أبنائه هما داود بن عيسى ومكث بن عيسى، وفي عهدهما كثر الفساد والاضطراب في مكة، وسنحت الفرصة لتحكم العبيد المفسدين في الناس بسبب انشغال أسيادهم الأشراف باللهو والخلافات فيما بينهم، وقد استمر حكمها بالتناوب مدة ٢٧ سنة كانت آخر مرة فيها لأمرة مكث بن عيسى، وقد ظل فيها عشر سنوات متتالية كان آخرها سنة ٥٩٧هـ (١) وهي السنة التي انتقل فيها الحكم من مكة إلى الشريف قتاده بن إدريس مؤسس طبقة الأشراف الرابعة «بني قتادة».

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢٢٤ .

وكان الشريف قتادة بن إدريس العلوي الحسيني قد نشأ في البادية قوياً شجاعاً، وتولى رئاسة قومه، ثم هاجم مكة مستغلاً فرصة انشغال حكامها بالأشراف من بني فليته باللهو والخلافات فيما بينهم واستولى عليها سنة ٥٩٧ هـ . ثم اتسع ملكه حتى وصل إلى اليمن جنوباً وإلى المدينة شمالاً. وكان حسن السيرة في بداية حكمه ثم مال إلى الظلم، وجدد الضرائب والمكوس، وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من الخليفة العباسي الناصر، وقد توفي مقتولاً على يد ابنه الحسن في مكة المكرمة سنة ٦١٧ هـ. (١)

وتولى الإمارة في مكة ابنه حسن بن قتادة فنشب النزاع بينه وبين أخيه راجع بن قتادة على إمارة مكة، حيث كان راجع يعتقد أنه أولى بها من أخيه حسن لأنه أكبر منه سناً مما حمله على الاستعانة بالأيوبيين في اليمن ضد أخيه حسن وانتزع الإمارة منه فكان ذلك من أسباب استيلاء الأيوبيين على مكة كما سيأتي بيانه.

ويقال أن الشريف حسن بن قتادة قد ارتكب فظائع كثيرة في سبيل الوصول إلى الإمارة حيث قتل أباه وعمه وأخاه ولكنه أخيراً طرد منها في حملة الملك المسعود ملك اليمن وحاول استعادتها دون جدوى فأخذ يتنقل من مكان إلى مكان حتى مات بالعراق طريداً وحيداً وذاق عاقبة قطيعة الرحم (٢).

وفي المدينة المنورة كانت الإمارة في فترة النفوذ الأيوبي في الحجاز واليمن محصورة في الأشراف بني مهنا الحسينيين وأشهرهم الأمير قاسم بن مهنا الحسيني، وقد ولاه الخليفة العباسي المستضيئ (٣) وأستمر حكمه إلى وفاته سنة ٥٨٣ هـ وكان على علاقة طيبة مع الخلافة العباسية. ثم تولى الإمارة في المدينة المنورة ابنه سالم بن قاسم وقد حدثت حروب بينه وبين الشريف قتادة بن إدريس أمير مكة استعان فيها بالأيوبيين في الشام ضد أمير مكة. وآلت الإمارة في المدينة بعد ذلك إلى الأمير شبحه بن سالم بن قاسم بن مهنا واستمر حكمه فترة طويلة (٤).

ومما يلاحظ أن أمراء المدينة قد احتفظوا بعلاقات طيبة مع العباسيين والأيوبيين ولكن ذلك لم يمنعهم من مساعدة أبناء عمومهم أمراء مكة ضد العباسيين والأيوبيين، على الرغم مما بينهم من خلاف.

(١) راجع ترجمة قتادة بن إدريس في - الفاسي : العقد الثين ج ٤ ص ٣٩ - ٦١.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٤ ص ١٢٤.

(٣) ابن خلدون : التاريخ ج ٤ ص ١١٠.

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ج ٢ ص ٢٢٥.

أما بلاد اليمن فقد شهدت امتداد النفوذ الأيوبي إليها سنة ٥٦٩ هـ على يد توران شاه بن أيوب الأخ الأكبر لصلاح الدين الأيوبي. وكانت بلاد اليمن في هذه الفترة تعاني من التفكك والانقسام بسبب الصراعات المستمرة بين الدويلات التي كانت قائمة فيها وأهمها: دولة بني مهدي في زبيد، ودولة بني زريع في عدن، ودولة بني حاتم في صنعاء، ومهما قيل حول الأسباب التي حلت الأيوبيين على غزو اليمن فإن حملة توران شاه بن أيوب على اليمن سنة ٥٦٩ هـ قد نجحت في القضاء على أهم الدويلات القائمة في اليمن، وبذلك دخلت بلاد اليمن تحت النفوذ الأيوبي المباشر. وقد استغرقت عملية توطيد النفوذ الأيوبي في اليمن فترة من الزمن توالى خلالها الحملات العسكرية الأيوبية من مصر إلى اليمن ومنها حملة الأمير خطبها وإلى مدينة القاهرة سنة ٥٧٧ هـ، ثم حملة الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ، وأخيراً حملة المسعود بن الملك الكامل سنة ٦١٢ هـ. واستخدمت الجيوش الأيوبية في معظم هذه الحملات الطريق البري عبر أراضي الحجاز مروراً بمكة المكرمة في طريقها إلى اليمن. وقامت للأيوبيين دولة قوية في اليمن تستمد نفوذها وقوتها من الدولة الأيوبية الأم في مصر والشام، وعاشت هذه الدولة الأيوبية في اليمن ما يقرب من سبعة وخمسين عاماً من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٦٢٦ هـ. حكم اليمن خلالها عدد من أمراء البيت الأيوبي واتخذوا لقب ملكهم وأشهرهم :

- ١ - الملك المعظم توران شاه بن أيوب (٥٦٩ - ٥٧١ هـ).
- ٢ - الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (٥٧٩ - ٥٩٣ هـ).
- ٣ - الملك المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب (٥٩٣ - ٥٩٨ هـ).
- ٤ - الملك الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب (٥٩٨ - ٦١١ هـ).
- ٥ - الملك المعظم سليمان بن شاهنشاه (٦١١ - ٦١٢ هـ).
- ٦ - الملك المسعود بن الكامل محمد (٦١٢ - ٦٢٦ هـ).

وينبغي إهتمام الأيوبيين ببلاد الحجاز من مكانتها المقدسة في نفوس المسلمين كافة. وكان صلاح الدين الأيوبي يقدر الأهمية الكبرى لبلاد الحجاز في تدعيم موقفه كزعيم للجهة الإسلامية في وجه القوى الصليبية الغازية، لذلك فقد حرص على الاحتفاظ بسمعة طيبة في البلاد المقدسة ونجح في ذلك إلى حد كبير عن طريق الإصلاحات التي قام بها في الحرمين الشريفين ومن أهمها إلغاء المكوس التي كان يتقاضاها أمراء مكة من الحجاج وعوَّض صلاح الدين الأيوبي أمير مكة عن هذه المكوس بألفي دينار وألفي أردب من القمح واقطاعات في

صعيد مصر واليمن^(١). ونال صلاح الدين محبة سكان مكة من مقيمين ومجاورين وحجاج، حتى لقد كانت أصوات المؤتمنين تطغي على صوت المؤذن الزمزمي عندما يصل إلى الدعاء لصلاح الدين الأيوبي^(٢).

وأحس صلاح الدين بالتبعة الملقاة على عاتقه تجاه الدفاع عن المقدسات الإسلامية في الحجاز وحمايتها من الصليبيين، فكان رده على حملة أرناط (رينارلدى شاتيون) في البحر الأحمر سنة ٥٧٨ هـ^(٣) قويا جداً نظراً لخطورة هذه الحملة، حيث كان من أهدافها الإستيلاء على المقدسات الإسلامية في الحجاز وتدنيسها.

وتابع خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين سياسة التودد إلى حكام الحجاز من الأشراف ليضمنوا استمرار الدعاء لهم في الحرمين الشريفين، وربما يكون من أهدافهم أيضاً توطيد النفوذ الأيوبي في بلاد اليمن عن طريق الحجاز التي كانت بمثابة مفتاح اليمن آن ذاك، وعن طريقها سارت معظم الحملات العسكرية الأيوبية إلى اليمن.

ولما كانت الدولة الأيوبية في اليمن فرعاً من الدولة الأيوبية في مصر والشام فإن سياسة أيوبيّ اليمن تجاه الحجاز لم تختلف عن سياسة الأيوبيين بعامة في ضرورة الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الحجاز نظراً لمكانتها المقدسة في نفوس المسلمين ولأهميتها الإستراتيجية بالنسبة للأيوبيين في اليمن فهي بمثابة حلقة وصل بينهم وبين الأيوبيين في مصر والشام وعن طريقها تحصل الإمدادات والتجندات والجيش إلى اليمن. أما بالنسبة للأشراف في الحجاز فإنهم كانوا ينظرون إلى الأيوبيين في اليمن كقوة ضاربة قريبة منهم وبإمكان الدولة الأيوبية إستخدامها ضدهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك كما سبق أن إستخدمت الدولة الفاطمية الصليحيين في اليمن لبسط نفوذها على الحجاز^(٤)، هذا فضلاً عن حاجة الحجاز إلى موارد اليمن وتجارته، ولهذا حرص الأشراف في الحجاز من جانبهم على إقامة علاقات طيبة مع الأيوبيين في اليمن.

ومن مظاهر العلاقات الطيبة بين الحجاز واليمن في ظل الأيوبيين الدعاء للملك اليمن من الأيوبيين بعد الدعاء للخليفة العباسي وأمير مكة وصلاح الدين من فوق قبة زمزم عقب صلاة المغرب كل يوم^(٥).

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٤.

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ٨٠ .

(٣) أهد البرنس أرناط صاحب حصن الكرك الصليبي سنة ٥٧٨ هـ حلة بحرية مفاجئة في البحر الأحمر فتوغلت إلى ميناء عيذاب على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر قبالة جدة، ونحرت الميناء وأستولت على سفن للتجار المسلمين ثم توجهت الحملة الصليبية إلى الحجاز عبر الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر، ولكن الأسطول الأيوبي كان لها بالمرصاد فقد تمكن من القضاء عليها قبل تحقيق أهدافها. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٤٩٠-٤٩١.

(٤) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٢٠.

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ٨٠.

أما الأيوبيين في اليمن فقد كانوا يعاملون أمراء الحجاز من الأشراف بالتقدير والإجلال، يتضح ذلك مما فعله كل من الملك المعظم توران شاه بن أيوب والملك المعظم طغتكين بن أيوب والملك المسعود بن الكامل من أمراء مكة والمدينة أثناء مرورهم ببلاد الحجاز في طريقهم إلى اليمن من أنواع الكرام المختلفة بمنحهم الخلع والهدايا والهبات.

وكانت للأيوبيين في اليمن أوقاف جلييلة على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، فقد أوقف الملك طغتكين بن أيوب وادى الجريب والحرب والمسلم في اليمن على البيت الحرام وبقي دخلها يرفع إلى مكة في عهد خلفائه حتى حول وقفها الملك المسعود سنة ٦١٥هـ ورفعها إلى الديوان، كما أوقف الملك طغتكين أيضا أرض أم الدجاج مع جبل من الأراضي في اليمن على المسجد النبوى في المدينة المنورة، وظلت هذه الأوقاف كذلك حتى منع الملك المسعود دخلها عن المدينة المنورة سنة ٦٢٢هـ ثم أعاده سنة ٦٢٥هـ^(١). ولم تقتصر الأعمال الخيرية في الحجاز على ملوك الأيوبيين في اليمن بل تعدتهم إلى أمرائهم، ومهم أن الأمير عثمان بن على الزنجيلي نائب الملك توران شاه بن أيوب بعدن. فقد بنى بمكة مدرسة ورباطاً متقابلين على باب العمرة سنة ٥٧٩هـ وأوقف لها أوقافاً جلييلة بعدن، وله أيضا رباط بالمدينة المنورة^(٢). وفي سنة ٥٨١هـ حج الملك طغتكين بن أيوب في عهد ولاية الأميرين داود بن عيسى وأخيه الأمير مكث بن عيسى في مكة؛ إذ لم تحدد لنا المصادر في عهد من منها لأنها كانا يتناوبان الحكم في مكة في هذه الفترة، واستمر ذلك إلى سنة ٥٩٧هـ. وقد لاحظ الملك طغتكين في هذه الفترة تدهور الأوضاع في مكة وانعدام الأمن فيها، بالإضافة إلى تحكم العبيد في أمورها بسبب إشغال أسيادهم الأشراف بالنزاع فيما بينهم، فحاول في فترة وجوده القصيرة في مكة إصلاح الأوضاع فيها بقدر الإمكان، فقتل جماعة من العبيد المفسدين الذين كان دأبهم إيذاء الناس، وأشترط على الباقين أن يمتنعوا عن إيذاء الحجاج، وخطب لأخيه صلاح الدين الأيوبي وضرب الدراهم والدنانير بإسمه ومنع الزيدية من الأذان الشيعي (حتى على خير العمل) في الحرم^(٣).

غير أن هذه العلاقات الطيبة تعرضت لنكسة على أثر قيام الإمام المنصور بالله عبد الله بن

(١) ابن الجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تاريخ المستنصر) ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج ١ ص ١١٧ ، ١١٩. النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٥٢٦.

(٣) الجزيري : درر الفرائد النظمة ص ٢٦٥. الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٩٨.

حمزة^(١) الزيدي في شمال اليمن بمناوأة النفوذ الأيوبي فيها، فقد اتصل الإمام المذكور بالشریف قتادة بن إدريس أمير مكة وبعث إليه رسالة يطلب فيها المساعدة في حربه ضد الأيوبيين في

اليمن، وعلى الرغم من أن الشریف قتادة اعتذر من المساعدة لإنشغاله بمداغة خصومه عن مكة^(٢) إلا أنه كان يتعاطف مع الإمام عبد الله بن حمزة الزيدي لأن أشرف مكة كانوا يعترفون بالمذهب الزيدي وقد مكثوا له في البيت الحرام حتى أصبح له إمام ومقام مثل المذاهب الأخرى في الحرم الشریف^(٣).

ولعل الذي أزعج الأيوبيين في اليمن أكثر من ذي قبل هو إمتداد نفوذ الإمام عبد الله بن حمزة إلى الحجاز، فقد ذكر المؤرخ اليمنى يحيى بن الحسين في حوادث سنة ٦٠٠هـ أنه «وصل إلى الإمام كتاب من بعض ولاة الحجاز أنه سلم ماقبله من حقوق ونذور إلى مأمور الإمام وهو الشریف حسن بن ضامن»^(٤). وما لاشك فيه أن وصول نفوذ الإمام الزيدي إلى الحجاز وسكوت الشریف قتادة بن إدريس وغيره من أمراء الحجاز عن هذا النفوذ يشير إلى قيام نوع من التعاون بين الأشراف في الحجاز والأئمة الزيدين في اليمن، ومن شأن هذا التعاون أن يثير المتاعب في وجه الأيوبيين ويعرض نفوذهم في اليمن للخطر. لاسيما وأن نفوذ الأشراف كان يتمد آنذاك من شمال اليمن إلى الحجاز ويربط بينها المخلّاف السليماني ويحكمه الأشراف من بني سليمان وهم يعترفون بالمذهب الزيدي أيضاً. لذا أعد الأتابك سنقر وزير الملك الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب (٥٩٨-٦١١هـ) خطة مع الأمير والقائد في إقليم صنعاء، لمحاربة الإمام والقضاء على نفوذ الأشراف في اليمن أولاً ثم في الحجاز. غير أن هذه الخطة الحربية لم يقدر لها النجاح بسبب انشغال الأيوبيين في اليمن بحرب الإمام^(٥). فلجأوا إلى طريقة أخرى لإبعاد هذا الخطر المزدوج عنهم فقط حاول الأتابك سنقر عقد اتفاق

(١) هو الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة ينتهي نسبه إلى الحسين بن القاسم الرسمي من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب. ولد سنة ٥٦١هـ وبرع في العلم منذ صغره حتى أصبح عالماً ومجتهداً كبيراً. بويع بإمامة الزيدية في اليمن سنة ٥٩٣هـ. ويعتبر من أعظم الأئمة في اليمن وأقواهم شخصية وأبعدهم صيتاً ودعاية. وبلغ من ثقته بنفسه أنه كان يعتقد أنه أئمة بالخلافة من العباسيين. وله حروب كثيرة مع الأيوبيين في اليمن واستمر يقاوم النفوذ الأيوبي فيها حتى وفاته سنة ٦١٤هـ (انظر: زبارة: أتحاف المهندية بذكر الأئمة المجددين ص ٥٦ - ٥٧).

(٢) يحيى بن الحسين: غاية الأمان في أخبار القطر اليمني ج ١ ص ٢٥٤.

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ٧٨.

(٤) يحيى بن الحسين: غاية الأمان ج ١ ص ٢٨٣.

(٥) ابن حاتم: السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن ص ١٣٣.

مع الأمير المؤيد بن قاسم أمير المخلاف السليماني يقضي بالمصالحة بين الأشراف في المخلاف السليماني (بنى سليمان) وبين الأشراف في مكة (بنى موسى) ثم عقد حلف بين الجميع للتعاون في حرب الإمام والإمتناع عن مساعدته^(١) ولكن هذا الإتفاق فشل في تحقيق أهدافه بسبب الخلاف المستحكم بين الأشراف في المخلاف السليماني وأشراف الحجاز.

وزاد توتر العلاقات بين الحجاز واليمن في عهد الشريف قتادة بن إدريس أمير مكة حتى أنه نهب الحاج اليمنى سنة ٦٠٧هـ (٢) وكان الشريف قتادة بن إدريس من أمراء مكة العظام ذوى النزعة الإستقلالية، وبسبب ذلك توترت العلاقات بينه وبين العباسيين والأيوبيين في مصر والشام واليمن ولم يعترف لهم بالنفوذ في بلاده حتى أصبح بخطب لنفسه في مكة دون خليفة بغداد والأيوبيين.

وقد أدرك الأيوبيون في اليمن مدى الخطر الذى يهدد مواصلاتهم مع الأيوبيين في مصر بسبب مواقف الشريف قتادة بن إدريس أمير مكة الغير ودية معهم، ولكنهم لم يستطيعوا الرد بقوة على أعمال أمير مكة بسبب إنهاك قواهم في الحروب مع الزيدية باليمن. وفي نفس الوقت كانوا يخشون من توتر العلاقات أكثر فأكثر مما قد يؤدي إلى قطع الإمدادات الأيوبية لهم عن طريق الحجاز في وقت هم في أمس الحاجة إلى مساعدة أيوبية عاجلة.

ثم كانت حملة الملك المسعود بن الكامل على اليمن سنة ٦١٢هـ، وفي هذه المرة قرر الأيوبيون ضم الحجاز إلى اليمن تحت الحكم الأيوبي المباشر، حيث عقد الملك الكامل الولاية لأبنه الملك المسعود على اليمن مضافاً إليه الحجاز^(٣). وكان غرض الملك من هذا التصرف على ما يبدو-تمكين السيطرة الأيوبية على اليمن عن طريق الحجاز- هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التنافس بين أبناء البيت الأيوبي قد بدأ يتجه إلى التوسع في مناطق النفوذ، وقد أراد الملك الكامل توسيع نفوذه في بلاد الحجاز واكتساب الألقاب الشريفة بانضواء الحرمين الشريفين تحت لوائه كما يتضح ذلك من الدعاء للملك الكامل في خطبة الجمعة على منبر البيت الحرام-بعد إخضاع الحجاز لسلطانه- قال الخطيب في حق الملك الكامل: «مالك مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها، والشام وصناديدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين الملك أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين»^(٤).

(١) ابن حاتم : نفس المصدر ص ١٤٢.

(٢) الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ٢ ص ١٧٤.

(٣) انظر الياقسي : مرآة الزمان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ج ٤ ص ٦٢.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٧٤.

وعندما توجه الملك المسعود بن الكامل إلى اليمن قدم عن طريق الحجاز وعلم به الشريف قتادة بن إدريس أمير مكة فجمع الجيوش من كل مكان إستعداداً لقتاله إن هو حاول أن يستولى على مكة المكرمة، ثم خرج في لقائه إلى خارج مكة، ولكن الملك المسعود أظهر له الود وأكرمه وخلع عليه وأخفى عنه ما عزم من الإستيلاء على الحجاز باسم والده الملك الكامل، ثم واصل الملك المسعود سيره إلى اليمن (١).

وبعد أن وطد الملك المسعود نفوذه في بلاد اليمن سار إلى مكة في شهر المحرم سنة ١٦٩ هـ لانتزاعها من يد الشريف حسن بن قتادة أمير مكة الذى خلف والده في إمارتها بعد موته سنة ٦١٧ هـ. ومما شجع الملك سعود على الإقدام على هذه الخطوة ضعف أمير مكة بعد أن تفرق عنه الأشراف وماليك والده بسبب سوء معاملته لهم (٢)، فضلاً عن تحريض الشريف راجح بن قتادة-أخي الشريف حسن ومنافسه على الإمارة-له على الإستيلاء على مكة ومساعدته له في ذلك على أمل أن يوليه الإمارة فيها لإعتقاده أنه أولى بها من أخيه الأصغر حسن (٣).

وصل الملك المسعود إلى مكة المكرمة وفاجأها بالهجوم بحيث أن الشريف حسن بن قتادة لم يشعر بقوات ملك المسعود إلى وهي في داخل مكة، فجرت بين الفريقين معركة في المسعى ببطن مكة، وأحسن الأمير حسن بضعفه عن مواجهة قوات الملك المسعود فانهزم وخرج من مكة (٤). ونهب جنود الملك المسعود المدينة حتى العصر. فلما علم بذلك أمر بإخراج العسكر من مكة، وحرّم سفك الدماء بها، وحرّم النهب، وصاحت الصوائح بالأمان لمن بها من التجار والمجاورين (٥). ورد الملك المسعود على أهل الحجاز جميع أموالهم ونخلهم وما أخذ منهم من الدور بمكة والوادي (٦).

وبعد أن تم للملك المسعود الإستيلاء على مكة عاد إلى اليمن، وترك الأمير نور الدين عمر ابن على بن رسول أميراً (٧) عليها ورتب معه ثلاثمائة فارس، وولى الشريف راجح بن قتادة

(١) ابن حاتم : السمت الغالي القرن ص ١٦٦.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٤١٣.

(٣) السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢١٢.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٤ ص ١٦٨.

(٥) الحزرجي : المسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك (مخطوط) ص ١٨٨.

(٦) الفاسي : نفس المصدر ص ١٧٠.

(٧) هو الأمير نور الدين بن عمر بن على بن رسول أحد كبار قادة الملك المسعود في اليمن، وقد استقل بملك اليمن بعد وفاة الملك المسعود سنة ٦٢٦ هـ وأسس الدولة الرسولية التي عمرت طويلاً في بلاد اليمن.

على بعض المناطق التي استولى عليها في طريقه إلى مكة وذلك مكافأة له على مساعدته في الاستيلاء على مكة المكرمة (١).

وهكذا أقدم الملك المسعود على غزو مكة المكرمة واحتلالها وإستحلال القتال في البلد الحرام والشهر الحرام غير عابئ بحجامة المكان والزمان ومستترأ بمشاعر المسلمين. ولا شك أن الملك المسعود ما كان ليقدم على هذه الخطوة الجريئة لولا علمه المسبق بتأييد والده الملك الكامل صاحب مصر على ذلك.

أما الخلافة العباسية وهي المغلوبة على أمرها فلم تحرك ساكنا حيال هذا الغزو بل ربما رأت فيه فرصة لاستعادة نفوذها في الحجاز الذي أخذ يتضاءل في عهد الشريف قتادة بن إدريس الحسني أمير مكة وابنه الأمير حسن بن قتادة. ولم تكن حملة المسعود هذه على مكة حملة تأديبية لتخويف حكام مكة من الأشراف بالقوة كما حدث من الخلافة العباسية والفاطمية قبل ذلك. بل تجاوز ذلك إلى أنه انتزع إمارة مكة من يد الأشراف وعين أحد قواده أميراً عليها تأكيداً للسيطرة الأيوبية ودليلاً على دخول الحجاز تحت النفوذ الأيوبي المباشر.

وفي أثناء ولاية الأمير عمر بن علي بن رسول على مكة جمع الشريف حسن بن قتادة جيشاً من ينبع وقصد به مكة لانتزاعها من يد الأيوبيين ولكن الأمير عمر بن علي رسول خرج إليه على رأس جيش من مكة وهزمه (٢).

ثم قدم الملك المسعود إلى مكة في موسم حج عام ٦١٩ هـ لأداء فريضة الحج واستعرض الملك المسعود هذه المناسبة قوته وأظهر عدم إحترامه للخليفة العباسي حينما أمر بتقديم علمه وعلم والده الملك الكامل على علم الخليفة العباسي، ولم يقف عند هذا الحد بل منع أعلام الخليفة من الصعود إلى جبل عرفة يوم الوقوف، ولم يسمح بطلوعها إلا قبيل غروب الشمس «لما ليتم في ذلك وخوف» (٣)، وقد أرسل الخليفة العباسي إلى الملك الكامل يشكو إليه ما فعل ابنه في مكة هذا الموسم فاعتذر إليه من ذلك وكتبه إلى ابنه الملك المسعود ينكر عليه فعله هذا ويقول له: «برئت من العادل يأخس إن لم أقطع يمينك، فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فاستعتب على أبيه وأعتبه» (٤).

(١) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢١٣.

(٢) ابن حاتم : الصمت الغالي الثن ص ١٧٥.

(٣) الجزيري : درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة ص ٢٧٦.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ٧ ص ٤٩٣.

(٥) ابن خلدون : التاريخ ج ٣ ص ٣٤٣.

وقد بالغ المؤرخون في وصف جرأة الملك المسعود في مكة فنسبوا إليه أشياء وفظائع ارتكبتها لعلها غير صحيحة مثل قولهم: إنه صعد على قبة زمزم وأخذ يرمى حمام الحرم بالبندق^(١)، وقولهم: إن غللمان الملك المسعود كانوا يضربون الناس في المسعى بأطراف السيوف في أرجلهم ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة التي بالمسعى والدم يجرى من ساقات الناس^(٢). ولم يمكث الملك المسعود في مكة بعد أداء فريضة الحج، فقد قفل راجعاً إلى اليمن وبصحبته الأمير عمر بن علي بن رسول وولى على مكة مكانة الأمير حسام الدين ياقوت ابن عبد الله الملك المسعودي فظل على إمارتها حتى وفاة الملك المسعود بمكة سنة ٦٢٦هـ وتلقب أثناء إمارته على مكة بلقب «أمير الحجاج والحرمين ومتولي الحرب بمكة ومدبر أحوال الجند والرعية»^(٣).

وفي أثناء ولاية الأمير حسام الدين قام الشريف سالم بن قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة المنورة سنة ٦٢٢هـ بمحاولة لإستخلاص مكة من الأيوبيين فسار إليها على رأس جيش كثيف، وحاصرها نحو شهر، ثم عاد عنها دون أن يظفر بطائل^(٤).

ولا شك أن هذه المحاولة من أمير المدينة تدل دلالة واضحة على تخوفه من إقتراب النفوذ الأيوبي منه في مكة، ومن غير المستبعد أن يكون هدفه من ذلك هو مساعدة الشريف حسن بن قتادة على استعادة إمارته في مكة لأنه رأى أن جوار ابن العم وإن كان خصماً له خير من جوار الأجنبي وإن كان صديقاً له.

وهناك مواقف كثيرة تم فيها التعاون بين أمراء مكة والمدينة لصد الخطر الخارجي وذلك على الرغم مما بينهم من خلافات. ومن ذلك أنه في عام ٦١٠هـ أرسل الخليفة العباسي قوة كبيرة من العراق لمحاربة الشريف قتادة بن إدريس الحسيني أمير مكة الذي هاجم الحجاج العراقي سنة ٦٠٨هـ وامتنع عن المثول بين يدي الخليفة في بغداد، وقد تعاون الأشراف في مكة والمدينة على صد هذه الحملة وردوها على أعقابها^(٥).

(١) البندق: كرات تصنع من الطين والحجارة أو الرصاص أو غيرها تستخدم في رمي الطير ونحوه، وهي كلمة فارسية بلفظها وإستعمالها وتسمى أيضاً الجلاهاقات جمع جلاهاق (زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ١٥٣-١٥٤).

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ق ٢ ج ٨ ص ٦٢٤. أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٣٢.

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٩.

(٤) السباعي : تاريخ مكة ج ١ ص ٢١٥.

(٥) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (ذيل الروضتين، ص ١٢٣).

وقبل أن نختم الحديث عن العلاقات بين الحجاز واليمن زمن الأيوبيين نرى من الضروري أن نشير إلى الأعمال الإصلاحية التي تمت في مكة أثناء تبعيتها للملك المسعود بن الكامل ملك اليمن.

أهتم الملك المسعود بالقضاء على المفسدين وقطاع الطرق في البوادي فأمنت السبل وتدفقت المؤن والأرزاق على مكة من مصر واليمن فرخعت الأسعار وازدهرت أحوال البلد طيلة ولاية الملك المسعود عليها، وامتد هذا الإزدهار إلى المدينة المنورة بفضل هيبة الدولة الأيوبية التي يمثلها الملك المسعود^(١). ومن إصلاحات الملك المسعود أنه أمر بفتح باب الكعبة ليلاً ونهاراً طيلة موسم الحج تسهياً على الحجاج لما كانوا يلاقونه من العنت ومشقة الزحام عند فتح الباب في وقت معين، وعوض الملك المسعود بني شيبة - سنده البيت الحرام - عما كانوا يأخذونه عن فتح الباب^(٢). وبني الملك المسعود القبة الحديدية التي على مقام إبراهيم عليه السلام، وضرب الدراهم السعودية المتعامل بها في مكة^(٣). وقام الأمير عمر بن علي بن رسول أثناء ولايته على مكة سنة ٦١٩هـ ببناء المسجد الذي أحرمت منه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بالتنعيم، كما بنى الأمير حسام الدين ياقوت دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه بمكة المكرمة سنة ٦٢٣هـ^(٤).

وظلت مكة ولاية تابعة للملك المسعود حتى وفاته بها سنة ٦٢٦هـ وهو في طريق عودته من اليمن إلى الشام، فانتقلت الولاية فيها للملك الكامل في مصر ولى عليها الأمير شجاع الدين طغتكين. ودخلت مكة بعد ذلك ميدان صراع مرير بين الأيوبيين في مصر والرسوليين في اليمن.

(١) الفاسي : شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) الجزيري : درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٦.

(٤) الفاسي : العقد الثين في تاريخ البلد الأمين ج ٦ ص ٣٤٠.